# الموت والكلمات ...

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

ألن نبيت الليلة في بيتنا يا حبيبي ؟ لقد مللت هذه الحالة، فالام نظل هكذا مشردين ، يستقبلنا مضيف ويودعنا اخر ؟ كم اود لو يظلنا هذه الليلة سقف بيتنا الحبيب ! انني اشعر فيه بجو من الالفة والانصهار لا يمكن ان يحققه لي اي مكان خر . اولست تشعر ، في هذه الفترة ، انك بعيد عني بعدي عنك ؟ حتى غرفتي القديمة في منزل والدي ، اتراني ما زلت احبها كما كنت من قبل ؟

اولم اكن اشعر ، لسنتين خلتا انها كانت اقرب كائن الى نفسي ، فما بالي اليوم اشعر ببرودتها ؟ لقد كانت مرآة ارى فيها نفسي ، وهي ما تزال كما تركتها ، جامدة باهتة . وانني لارى فيها الان تلك المسافات الشاسعة التي قطعتها في هاتين السنتين ، مسافات تفصل بين حياة فرضت علي بجميع اطرها كنت اتلقاها برضى حينا وبثورة حينا اخر ، وحياة اخرى اخترتها انا بنفسي ، اخترت كل تفصيل فيها وكل اطار وانني لاشعر فيها انني ، لاول مرة كنت المسؤولة الوحيدة عن مصيري وان مسؤوليتي لتتضاعف الان تجاه عائلتي تلك الجديدة .

عائلتي الجديدة ، وبيتي الجديد . ان كل ركن من اركانه يشهد لنا بذكريات ، هي على بساطتها ، حلوة جذابة .

لقد قامت ، هي وزوجها بتنسيق اثاثه ، والاهتمام بكل صغيرة فيه . وكثيرا ما كانا يتناقشان في كيفية ترتيبه فكانت غالبا ما تقتنع بآرائه انها تثق به وبذوقه ، وهي لا تكاد تقوم بعمل قبل ان تستشيره . وكان هو يحدثها عن اعماله،عن كل صغيرة فيها، حتى التافهة . وحين كان يشتري لبيتهما قطعة جديدة كانت هي تحرص طوال غيابه على ان تنسقها وترتبها ، فاذا ما حان وقت مجيئه ركضت الى الباب تفتحه وهي تبتسم فيأخذها بين ذراعيه ويقبلها ، فتمسكه من يده وتقوده الى حيث استقرت القطعة الجديدة مشيرة بيدها اليها . وتبقى لحظة ملتصقة به وهي تنظر اليه يتأمل دهشا . لم تبدو جميلة هنا يا حبيبتي . ليتني كنت استطيع ان احضر لك كل ما تتمنينه : بيتا رائعا تتوفر فيه اسباب الراحة والرفاهية . فكانت تقاطعه قائلة : انني لا اتمنى اكثر مما توفره لي . الست تحبني ؟ اذن فهذا الاثاث كله لا قيمة له عندي . قل لي انك تحبني ، فيستحيل كل شيء في نظري جميلا ، ثم اني لا احب ان امتلك كل شيء دفعة واحدة . واعتقد اننا حين نحصل على كل شيء تصبح حياتنا جامدة . فلا بد من ان نالف ما نملكه ويغدو لاعيننا شيئا عاديا : اننا بطريقتنا هذه نبعث في كل وقت حياة جديدة في بيتنا . اليس كذلك يا حبيبي ؟

فيضحك وهو يهز برأسه ويقول لها بلهجة تحار بين اللطف والسخرية « لكم تعجبني احيانا اراؤك . اكملي ... لنرى ! »

ولم تكن تكمل . وكانت تغضب احيانا ، ولكنه ما يلبث ان يسترضيها بكلمة او بقبلة او بوعد . وكم كانت تحب تلك الطاولة التي يجلس اليها زوجها ساعات طويلة وهو يكتب او يقرأ وهي جالسة قبالته تقرأ في كتاب . كثيرا ما كان ينساها وهو في حميا الوحي فتغفو على كرسيها. اما اللحظات اللذيذة فكانت تلك التي كانت تجلس امامه فيملي عليها . وكثيرا ما كانت تقاطعه او تقرصه من يده فينفجر ضاحكا ثم يعاتبها بانها قد قطعت عليه مجرى تفكيره . وكان يشعر بان الساعات التي كان يقضيها معها كانت اكثر انتاجا واقل مشقة . وكانت تعيد عليه ما كتبه فتحطم ما شاء لها سيبويه ان تحطم فيصلح لها الاخطاء وهو يضحك حينا ويتصنع الغضب حينا اخر . ولكنه كان سعيدا بتلك الزوجة الصغيرة ، انها لاتشك في انه يحبها ومع ذلك .. فستظل تشك ، ما دام في قلبها حب عارم له ..

مرت بخاطرها كل هذه الصور وتلك الافكار وهي تسائله من جديد : الن نبيت الليلة في منزلنا يا حبيبي ؟

ـ بلى . فالى متى سنظل مشردين . لم يسبق لنا منذ ان تزوجنا ان بعدنا عن ركننا . اننا هنا كالغرباء في بلدنا . انا لا اعرف ماذا ينبغي لي ان اعمل . لقد انتشلت من جوي .

ـ ولكنني .. اخاف ان اعود اليه .

ـ لماذا ... هل لديك الدليل ؟

ـ لا . ولكنني اخاف .. اخاف . قلبي يحدثني .

ـ لا احب ان تنساقي لهوس في نفسك لا يبرره شيء . انت مثقفة ويجب ان تحكمي عقلك في الامور .

ـ وانت مثقف ايضا . فاعطني الدليل على ان شيئا ما لن يحدث .

وصمت لحظة . واردفت تقول : « سمعت من يقول بان هناك نية لنسف البناية التي نسكنها.ان الثورة ستندلع. وسوف تبدأ من منطقتنا فيهذه الليلة بالذات . هل هذا صحيح ؟

ـ ليس لي علم بذلك . لعله مجرد كلام . ثم ان منطقتنا هي آمن نقطة. هل تصدقين كل مايقال ؟

ـ لست مطمئنة ... وكثيرا ما كان حدسي يتحقق . انني اكاد اؤمن به بالرغم من ان عقلي يقاومه . ولكنني كنت غالبا ما اقتنع بحججه ، ونتائجه الواقعة كانت تضاهي حجج العقل . على انني سأتبعك . سنذهب الليلة الى بيتنا . اجل سأذهب وليحدث لنا ما يحدث . ولكن هل سنأخذ الطفلة معنا ؟ ام نتركها عند جدتها ؟

ـ لا . لن يهدأ بالنا ببعدها عنا . سنصحبها .

ونظر الى الطفلة الصغيرة . فركضت اليه متعثرة. انها في السنة الاولى

من عمرها . ومع ذلك فهي تبدو انها تفهمه . لقد غمرت رأسها في وجهه، فضمها اليه وشدها وكأنه يشد معها جميع المستضعفين .

*

ادار المفتاح في الباب فاطل عليهما منزلهما الحبيب . لكأنها المرة الاولى التي يدخلان فيها اليه . كل شيء يبدو فيه جديدا . لقد فقد دفئهما طيلة هذا الاسبوع فبدا موحشا . البناية كلها خالية من السكان لا نور ولا حركة ولا انفاس ترتعش ، بل صمت رهيب حالك . ودخلا اليه . لقد علا الغبار اثاثه . فركضت الى الراديو تزيل عنه الغبار واسرع هو الى مكتبه يقرأ آخر صفحة من قصة بدأها وهو يهم بان يتابع المسير.. وضمت الصغيرة لعبتها وهي تصرخ: ما ... ما ..

واسرعت هي اليها وحملتها بين ذراعيها ثم القتها على كتفي والدها المنهمك . فرفع رأسه واخذ الصغيرة ونظر الى الام وهو يتمتم : اتركاني اريد ان اعمل . لقد فقدت اسبوعا كاملا وانا تائه . اريد ان اكتب .

وعادت هي الى سريرها واراحت الطفلة على السرير الصغير قبالتها . لقد كانت تقدر موقف زوجها وتفهمه . وهي تحبه في تلك اللحظات المحمومة ، اللحظات التي يبدو فيها فنانا خالقا . وكانت اعصابها بحاجة الى الراحة فاستسلمت للنوم .

وكانت الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل حين انبعثت اول طلقة نارية في الفضاء . وفتحت عينيها ومدت يدها تتحسس زر الكهرباء . وما هي الا لحظة حتى انبعثت طلقة اخرى من صوب الشمال ثم اندفعت الطلقات تدوي بلا انقطاع . لقد كانت هي المرة الاولى التي تسمع فيها دويا كهذا . وجمدت في سريرها . وجمدت يدها التي تتحسس النور . واختنق صوتها . تريد زوجها . تريد ان تصرخ مستغيثة انها الان بحاجة اليه . انها خائفة ، خائفة ، خائفة ستموت من الهلع . وارتفع صوته يناديها من الغرفة المجاورة : « لا تخافي يا حبيبتي. انا هنا . لا تزعجي الطفلة . سآتي اليك . »

ـ اما تزال ساهرا؟ لقد انتصف الليل . تعال الي. انني خائفة ..

وهرع الى غرفتهما . فرأى وجهها ممتقعا شاحبا ويداها ترتجفان .

ـ لا بأس يا حبيبتي . ليس في الامر شيء خطير .

ـ هل أنهيت قصتك ؟

ـ لم اكن اكتب قصة . بل مقالا لصحيفة ستتبنى آراءنا الثورية .

ـ وهل ستعود الى ميدان الصحافة بعد ان تركتها منذ فترة طويلة ؟

ـ لن اكون موظفا فيها . سأكتب ما اريد ، ما يمليه علي ضميري فقط. ومتى اريد . انني اشعر بوخز ضميري ، وانا لا اطيق ان ابقى مكتوف الايدي والمئات يتاهبون لبذل ارواحهم كل يوم ، انهم ابطال يؤمنون بالعقيدة التي اؤمن بها . اما انا ، انا الذي وقفت شطرا من حياتي ادعو الى تلك الثورة وازرع مع رفاق لي بذورها ، انا اليوم ، اقف متفرجا . اقف اعزل من كل سلاح . في فمي الف كلمة لا استطيع ان اعبر عنها . ويداي ، اجل يداي لم تستهديا الى حمل مسدس . ماذا اعمل ؟ اي شيء . ولكن علي ان اشارك . ان اشارك مشاركة فعلية . يكفي ان اخرج الان الى الشارع . واتحدث الى شبابنا الذي ما يزال ساهرا ينتظر الموت والنصر .. سأتحدث اليهم .. سأضع نفسي تحت تصرفهم . سأناولهم الماء على الاقل .. وهذا اشد راحة لضميري من ان ابقى هنا. في هذه اللحظة الحاسمة ازن لاول مرة ، قيمة الكلمة التي كنت اكتبها التضحية . الوطنية . اليوم فقط اشعر بنبلها وفظاعتها وقوة طاقتها الايحائية . انها باتت تعني، على صعيدي الشخصي : ان افارق هذا الركن الحبيب وان اترك من احب .

وارتعدت من الهلع . لم تكن تسمع كل ما كان يقوله . كان كل شيء هادئا منذ لحظات ولاشيء يعكر الصمت الرهيب سوى تمتماته الثائرة . ولم تنتبه الا الى الجملة الاخيرة . فهبت مذعورة وهي تصيح : تتركنا ؟ من ؟ أنت ؟ انا وحدي ؟ لا . لن تذهب الا وانا معك . وماذا تريد ان تفعل انك لا تجرؤ على حمل مسدس . فالى اين تريد ان تقصد ؟ لا . ليس هذا هو ميدانك . ليس المهم ان يستشهد المرء في سبيل الوطن ، بل ان يكون مفيدا في ميدانه ، وميدانك هو الكلمة .

ـ كنت اؤمن بها . ولكنني اشعر الان بعجزها . لقد فقدت حرارتها. فقدت قيمتها . انني احتقرها . امقتها . لقد اهينت ، فقدت في نفسي قدسيتها . لقد تعرت من كل ماكان ملتصقا بها من صفة هي التعبيرالوحيد عن محتواها . ان الخائن يدعي الوطنية ، والنذل الكرامة والشرف . والجاهل الثقافة والعمق. لا. انت لم تسمعي البيان الذي اذيع من الراديو لقد كان اجهل رجل في ربوعنا يقود سفينتنا ويدعو العالم الى سماع نصائحه ، هو المثقف الذي يتوقف عليه مصير الحق والعدالة . هو الذي يسمح للمستعمرين بان يطأوا ويذبحوا اطفال شعبنا البريء يتبجح بانه ينقذ وطنه . اية قيمة بعد لتلك الكلمة التي كنت ، لساعات اعبدها ، اية قيمة لها ما دامت تجمع في محتواها بين المتناقضات . اجل ، لم اخجل بنفسي يوما كما اخجل بهااليوم . اخجل منها لانني مثقف .. اجل مثقف ..

ودوى في الحي انفجار رهيب وتلاه اخر ، ثم اخر . ثم انهالت الطلقات ولعل الرصاص كان يصطدم بابواب المخازن الحديدية ثم يرتطم في البعيد محدثا صوتا مريعا وكان الخصمان من الشرق والغرب يتبادلان الرصاص . فاذا سكت احدهما ، عاد الاخر متحديا . وكان منزلهما وسطا بينهمايتلقى فورات الاثنين الجنونية ، وامام البناية ، انفجرت قنبلة رهيبة احست ان البيت يهتز لها .

ـ اقترب مني ، اقترب . الم اقل لك ان البناية سوف تنسف ؟ ليتني لم اسمعك ! سنموت الان ، هكذا ميتة حقيرة . ولن يدري بمصيرنا احد. انا لا اقوى على النهوض .

ـ تمددي على السرير . الصقي جسدك كله عليه. لعل ارتعادك يخف

ـ انا لا اقوى على شيء.

وكانت تهب كلما سمعت دويا . وتحس فجأة بان ساقيها قد ارتفعتا الى فوق وانطوتا .

ورآها فجأة تنهض . فركض يتبعها . لا.لا.لا تقتربي من النافذة سيظنون ان النار تنطلق من هنا . وستكون غرفتنا مقصدهم .

ـ لن اقترب . ولكنني اريد ان ابقى هنا بالقرب من طفلتي . انها تحت النافذة . واخاف عليها من الرصاص . هل اقفل الزجاج ؟

وحين اشتدت حالة الخطر ، كانت تجلس على الارض حانية راسها على السرير الصغير ، باسطة ذراعيها عليه . لعل الرصاصة الطائشة تخترق جسدها قبل ان تهبط على الجسد الصغير .

ـ يبدو ان الحالة قد هدأت . قومي لنرحل . لن نغيب طويلا . ان هي الا ايام ثم نعود الى بيتنا . احضري ما ترينه ضروريا ، ضروريا جدا .

وحاولت ان تنهض . لقد كان جسمها محطما . انها لن تقوى على الوقوف .

هي تعبة جدا . انها لم تشعر بمثل تلك الحالة الا بعد ولادتها الاولى وجرت نفسها واقتربت من النافذة . كان الناس يسيرون بالعشرات

مهرولين وقد حمل كل منهم حاجته من اللباس . حتى الاطفال منهم كانوا يمسكون بايديهم شيئا . وخيل اليها انها تشاهدهم على شاشة لشدة ما هم يسرعون . ولكأنهم اشباح ملونة تتعاقب يختلط فيهم الصغير بالكبير. لقد تركوا كل شيء . ان الحياة في صدورهم ، وهم ، اليوم ، يشعرون بانها اعز ما يمكلون .

ـ خذ الصغيرة .. لقد افاقت . غريب كيف هي لم تحس بكل ما جرى مع ان نومها شفاف . خذها . سأتلفن لامي مستفسرة عن الحالة في جيهم وهل يمكننا ان نأتي اليه.

وركضت الى غرفة المكتبة ، واخذت السماعة . وتكلمت ، وكان كل ما قالته: «اني خائفة يا امي ، انني خائفة.» ونظرت الى النافذة مستطلعة. لقد كانت في هذهاللحظة تخشى ان يخترق صوتها الجدار فتصل الى اسماع المراقبين المبثوثين في كل مكان . ورأت عى سطح بيت مجاور عيونا اربعة تحدق بها وكان صاحباها يحملان مسدسين.. وكانت يدٌ خامسة تشير ان اتركي التليفون . وجمدت في مكانها . وتركت الالة تسقط في مكانها . وركضت الى غرفتها فاصطدمت بلعبة طفلتها ووقعت.

وركض زوجها اليها . وكان يداعب شعر الصغيرة وعيناه شاردتان : « ما بك ما بك ؟ ارى ان اعصابك ثائرة . ثائرة اكثر مما ينبغي . لقد كنت اعتقد انك اكثر شجاعة ، فاذا كنت لا تستطيعين ان تضبطي اعصابك ، فماذا يفعل الجهال من جنسك ؟ اريدك قوية ، فنحن بحاجة الى المرأة تشاركنا جهادنا ولا تقل عنا هوسا واندفاعا . »

ـ لم تعد القضية قضية ضبط اعصاب . لقد تجاوزنا هذه المرحلة . انها لحظة حاسمة نمر فيها . لحظة يتأرجح فيها مصيرنا . ان الموت هنا يهددنا ويذلنا . اجل يذلنا . انه يكشف عن حقيقتنا . وانا اخاف الموت .

وبرق في خاطرها بعض ما كانت قد قرأته من تأملات فلسفية حول الموت . لكم تبدو لها هذه الملاحظات سخيفة معراة من اي طابع واقعي. ان هؤلاء جميعا لم يعانوا مشكلة الموت ، هم لم يواجهوه في لحظته الفاصلة ، اللحظة التي ينهار فيها الانسان وكانه لم يكن . لقد بحثوا فيه من دون ان يعوا واقعه هذا الرهيب . اتراهم حقا كانوا يمجدونه لو تمثلوه بهذه الصورة التي يتجسد فيها امامها : وحشا مفترسا يفتح فمه عن انياب حادة قاتلة وتلمع عيناه ببريق مريع ويغمد اظافره الطويلة القاطعة في الجسد الطري تنبشه خيطا خيطا . لقد احست بهذا الشبح يطبق على رقبتها فصاحت دون ان يرتفع صوتها :: لا . لا اريد ان اموت. لا اريد ان اتركك.»

ونظرت اليه . كان هو ايضا في صميمه خائفا ، خائفا على مصير عائلته تلك الصغيرة ، الا انه كان يحكم عقله اكثر من عاطفته . وانحنى على زوجته يحيطها بذراعيه فهدأت نفسها قليلا وقالت له :

ـ اتراني كنت اخاف هذا الخوف كله لو كنت في ساحة القتال اشارك افراد المقاومة ؟ لا اعتقد ذلك . ربما كنت اكثر شجاعة . فانا اشد خوفا عندما اكون وحيدة مني لو كنت محاطة بفريق من الناس يواجهون نفس المصير الذي سأواجهه . يخيل الي اننا بتضامننا لا بد ان نقهر الموت وان ننتصر . وفورة النصر هذه هي التي تدفع المقاومين الى الموت مستعلين عليه متجاهلينه . اولسنا نحن ايضا نعيش لكوننا نتجاهل هذه الحقيقة المرعبة : الموت . والا فكيف نستمر كل يوم في بناء اعمالالغد ونحن مهددونفي كل لحظة،اذ نرى افواجامن اخواننا البشر تضمهم كل يوم حفرات منالتراب يعشعش فيها الدود والتتن حتى تنحل اجسادهم فاذا هم حفنة منها ؟

كانت تتمتم ذلك . ان رواسب من الخوف ما تزال تغلي فيها وتدفعها الى ان تتكلم ، ان تتكلم اي شيء وعن اي شيء ، خشية ان يطفو هذا الخوف فيستولي عليها. وما هي الا لحظة حتى عادت الطلقات تصعقها. فاجفلت وامسكت به محدقة : العيون الاربعة ، العيون الاربعة الحمراء كم اخافها !!

✱

ـ لن نغيب عن البيت طويلا . سنعود حين تهدأ الحالة . هل احضرت كل شيء ؟

ـ لقد هيأت كل ما تحتاجه الصغيرة وبعض اشياء لك . واستحضرت قميص نوم لي : يكفيني ذلك . فنحن لا نستطيع ان نحمل اكثر من هذا .

ـ لا . احضري لك ثوبا على الاقل . من يدري ، ربما طالت غيبتنا بعض الشيء .

وفتحت خزانتها . ماذا ستحضر ؟ فقد لا تعود الى بيتها هذا بعد . ربما نسف وانهار كل شيء فيه. انها تحب ملابسها كلها . لكل قطعة منها حكاية وذكرى . انا قليلة . ولكنها تحس انها تحمل بعضا منوجودهما، هذا الثوب الابيض . كم يحبه . لقد كانت ترتدي مثله حين رآها للمرة الاولى ، فقال انه يعكس كل ما تمتاز به من صفاء نفس وبراءة . وهذا ..وذاك . لا انها لا تستطيع ان تحملها كلها . ستأخذ واحدا فقط . وستغلق الخزانة ، وفي نفسها حسرة

وحملت الحقيبة الصغيرة . وحمل هو الطفلة ، وخرجا من غرفتهما واجتازا الصالون ، ووصلا الى عتبة المنزل . ونظرت قبل ان يفتح الباب الى الصالون.ان آثار الزينة ما تزال قائمة: الاوراق المخرمة الملونة ماتزال معلقة من باب الى اخر والبالونات متدلية منها وكذلك اللمبات الكهربائية الصغيرة . وبكت الصغيرة مادة يدها . انها تريد ان تظل هنا . هي لم ترتع بعد بمعالم تلكالزينة . لقد كان عيد ميلادها منذ اسبوع فاحتفلوا به ثم اضطرا في صباح اليوم التالي الى مغادرة منزلهما . وها هما يرحلان عنه ولم تمض عليهما ليلة كاملة فيه .

✱

دفعها الى خارج المنزل . فنظرت الى بيتها الحبيب . واقفل هو الباب ببطء ويده مرتعشة . ونظر اليها فاذا هي تبكي . فاختنق صوته وحين نظرت اليه ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تمسح دموعها كالطفل : المهم ان ننجو . كل مكان سيضمنا سوف نحبه .

ـ اجل يا حبيبتي . ولكننا سنعود اليه . والان انتبهي . يجب ان نحذر ، فالمقاومون منتشرون في كل مكان . يجب ان اثبت اولا من ان احدا لن يرانا . وعلى الاقل سوف اعرف بعض الحراس بنفسي حتى يسمحوا لي بالمرور . خذي الطفلة وانتظريني قليلا .

ـ لا . لن ادعك لحظة ، سنكتشف معا . ثم انه لا يمكن للمقاومين من منطقتنا ان يطلقوا علينا النار وهم يرون بين ايدينا طفلة . الا تعتقد ذلك؟

ـ هذا صحيح . ولكن أنسيت اية فظائع ترتكب الان ؟ ان سكاننا يقتتلون ، وكانوا منذ ايام يعيشون متآلفين متمازجين ، حتى اوقع بينهم محترفو السياسة السفاحون . لقد عرفوا ناحية الضعف من نفوسهم فاستغلوها وابرزوها وحملوها شعارا يدفعون به عنهم . وها هم الان يتقاتلون . فاين هو العدو واين هو الرفيق ونحن كلنا ابناء وطن واحد ؟ أتتصورين ان جيراننا لنا في الحي نفسه قد يستبيحون لانفسهم ان يطلقوا علينا النار . اية فظاعة هذه ! ولكننا نحن لا نقاتل . اننا فقط ندافع عن انفسنا، ندافع عن ارضنا ، عن استقلالنا الحقيقي غير المزيف .

وهذا ما يرد لمقاومتنا نبلها ومجدها . سوف اكرس نفسي لاظهار هذه الحقائق . ولكن ، يا الهي ، اية فائدة من ذلك ؟ لقد شوهوا كل معنى. وقلبوا جميع المفاهيم !

واسرعا الى الطريق . كان في الزاوية المقابلة احد افراد المقاومة الشعبية . فاومأ اليه بيده . فهرع اليه . وأذن له . على ان يسرع ما استطاع . لان المقاومة في هذه اللحظة تتوقع هجوما . وستقابله بكل امكانياتها . لعلها ستكون المعركة الفاصلة .

وركض الى سيارته الصغيرة وادارها . وركضت وهي تحمل الطفلة وقد انحنت فوقها حتى لم تعد ترى .

واشار اليه المقاوم بان يسرع ، بان يقلع اقلاعا جنونيا .

ستبدأ المعركة . وهنا بالذات ميدانها .

وهم هو بان يقلع . ثم كف . لقد كان جار له يصرخ ويستغيث بان ينتظره قليلا ، يكاد ان يغمى عليه . وهو مريض لكثرة ما عانى تلك الليلة ثم هو غريب عن هذا البلد . فلو عرف الاعداء به لمزقوه . وكان هو يؤمن بنظافة جاره وان لم يكن يعاشره معاشرة كافية . ورجع الى الوراء وفتح له الباب فارتمى على المقعد الخلفي كأنه سكران . وانطلق هو بسيارته . وانطلقت من خلفه اصوات الرصاص .

واصبحت اذناه لا تسمعان سوى الازيز وعيناه لا تريان سوى الايدي الملتهبة التي تنثر الموت وتزرعه في كل بقعة . وخلا الطريق فجأة من كل ما هو حي .

ـ لقد تأخرنا . كيف سنتوجه . ان الطرقات شبه مسدودة . ان الخنادق فاغرة افواهها والمتاريس قائمة عند مفترق كل طريق .

ولم يكن له ان يختار في هذه اللحظة او ان يفكر. كان يقود بسرعة جنونية، فيرى في وجهه متراسا او خندقا فيحيد عنه ثم يحاول تغيير اتجاهه .

وكانت هي تتابع نظرات زوجها المحمومة التي لا تستقر . لقد بلغ الخوف عندها اشده حتى انها لم تعد تشعر به .

واجتازا المنطقة الخطرة لا تدري باية اعجوبة ولكن اصوات الرصاص والقنابل كانت ما تزال تتفجر في اذنيها . وكانت الصغيرة ترتعد وتجفل.

وحين بلغوا بيت والدتها نزل جارهما ومشى كالتائه . ولم يقل لهما اي شيء. وعندما فتح الباب ارتمت بين ذراعي امها وهي تجهش في البكاء. وظلت تبكي . فاشار زوجها بانها بحاجة الى الراحة ، وانها ثائرة الاعصاب .

وتمددت على السرير . ونامت . ولم تصح حتى صباح اليوم التالي .

*

كانت الساعة تشير تماما الى الرابعة صباحا . وكانت اصوات بائعي الصحف تخترق الصمت المخيف . انهم يأتون في هذه الساعة المبكرة ليبيعوا صحف الثورة . وهي اولى الساعات التي سمحت بها السلطة بالتجوال . وكان الناس ينهضون من فراشهم الى شرفات المنازل وهم يتلهفون لمعرفة ما جرى في تلك الليلة ، وهب هو من فراشه وفتح باب الشرفة . وادلى بسلة صغيرة معلقة بحبل ورمى في السلة الصحيفة . ولم ينتظر هو ان يرد له ما تبقى من فلوسه . بل رفع السلة . وامسك بالجريدة وقد هدأت نفسه. وحملها الى زوجته . لقد شعرت بخروجه فباتت تترقبه . ودخل الى الغرفة واخذ الجريدة بين يديه وبدأ يتمتم. ثم القاها بين يديها .

كانت الصفحة الاولى تحمل في افتتاحيتها كلمة لزوجها. وكان عنوانها : « شرف الكلمة »

قرأتها . ونظرت اليه ـ كم هي تحبه وتحترمه . وقبلها . لقد كان قلبه مفعما بالفرح . ان كابوسا قد ازيح عنه . انه سيشارك ، بل قد شارك منذ اليوم اخوانه الثوار ..

وقالت له : هل عاد اليك ايمانك بالكلمة ؟

ـ اجل . اليوم . انني اؤمن ان الثوار بحاجة ايضا الى توجيهات المثقفين منا والمخلصين . انهم بحاجة الينا . هم يعيشون على اعصابهم، ينقادون بعواطفهم . انهم في قلب المعركة المحتدمة لا يجدون لحظة ليفكروا فيها . هم ثائرون ، ثائرون حتى الموت ، فكأن الموت هو مبتغاهم . اما نحن ، فاننا مانزال خارج المعركة عمليا وان كنا نعيشها . اننا نستمد من وقعهم مادتنا وحماسنا ولكننا لا نلتصق بواقعهم ، بل نبقى منفصلين عنه ، بيننا وبينه مسافة تجعلنا قادرين على ان نسيطر على عواطفنا لنستغل عقلنا في البحث والتجرد والتخطيط . فاذا لم ننفذ خططنا وتوجيهاتنا اليوم ، فلسوف تنفذ بالمستقبل ، لانها لمستقبل زاهر امثل . ولعلها ستكون البذور التي تزرع ثورة اخرى ، اعم واشمل ، تستولي على جميع مرافق حياتنا فتغير مجرى تفكيرنا وواقعنا الحياتي.

ونظر الى زوجته الراضية ، وصوته متهدج من الانفعال . فقالت له :

ـ انني اخاف عليك . انك جاد في كتاباتك جدا . الن تخشى ان يلقوا القبض عليك ؟

ـ يجب ان تتوقعي ذلك بين لحظة واخرى . ولكن لا تجزعي لذلك . الا تعتقدين اني اخون ضميري حين اصمت ، فلا ادافع على الاقل عن شرف الكلمة التي اؤمن بقدسيتها ؟

والتفت الى اليمين ثم حط نظره على فراش صغير مد على الارض . لقد كانت طفلته نائمة . وكانت خصلة من شعرها الفاحم متدلية على جبينها الابيض ، وكانت بسمة محببة تزدهر على شفتيها الصغيرتين.

عائدة مطرجي ادريس


الكتاب

اجمل هدية تقدمها

لاصدقائك في الاعياد

مكتبات انطوان

بيروت ـ لبنان